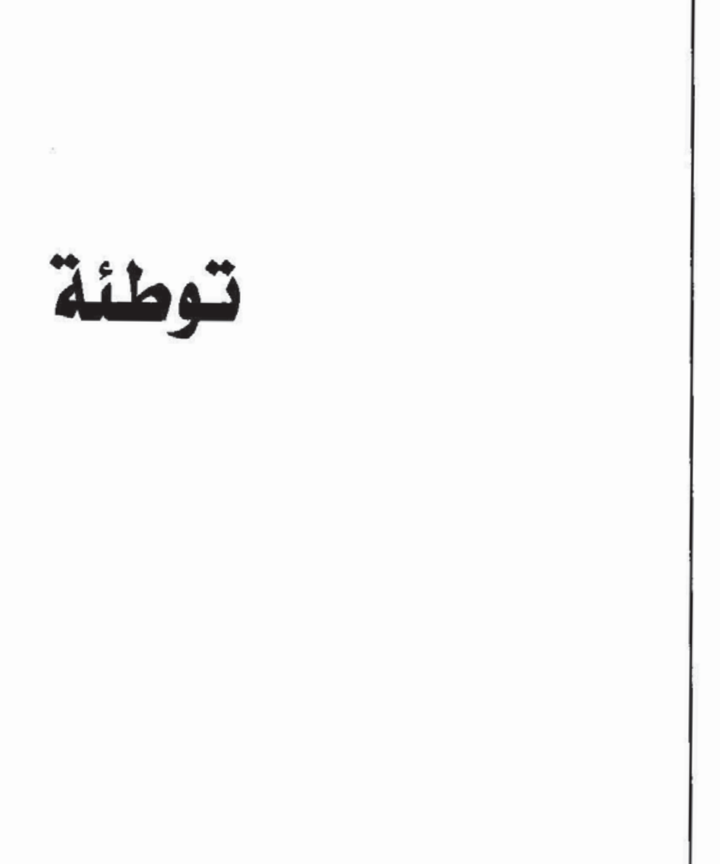


توطئة

توطئة

قبل الدخول في سيرة ابن عاشور، ومنهجه المجمل والمفصل في تفسيره ـ يحسن التنبيه إلى الأمور التالية:

١ ـ أن هذه المباحث التي يشتمل عليها منهج ابن عاشور في تفسيره أشبه ما تكون بالقراءة، أو الانطباع العام؛ فلم يكن المقصود ـابتداءًـ دراسة هذا الكتاب بقدر ما كان إبرازاً لمزاياه، ولفتاً للأنظار إليه.

وليس من ضرورة ذلك تتبع المؤلف في كل صغيرة وكبيرة، والوقوف عند كل شاردة وواردة في تفسيره.

٢ ـ أن ابن عاشور عالم كبير متفنِّن، وقد أمضى ما يقرب من أربعين سنة في تفسيره؛ فيحتاج في مناقشته في بعض الأمور إلى كبير مثله، أو مجموعة متخصصين في شتى الفنون؛ فلا يحسن ـوالحالة هذهـ أن يسارع إلى تخطئته؛ لقوة عارضته، وكثرة مخارجه، وجزالة عبارته، وإن كان هذا الأمر نسبياً، ويختلف من شخص لآخر.

٣ ـ أن كلامه في بعض المواضع يحمل على بعض؛ فقد يظهر في موضعٍ ما إشكال، أو إجمال؛ فإذا انتقلت إلى موضع آخر في نفس الموضوع ربما زال الإشكال.

٤ ـ أننا بحاجة إلى إبراز الوجه المشرق ـوما أكثرهـ في سير علمائنا ومؤلفاتهم.

فليس بالضرورة إذا ذكر شخص أو عالم أن تُذكر هفواته، أو تُتلمس

عثراته، أو يُفصل فيها من غير حاجة.

أما إذا احْتِيْجَ إلى الرد والمناقشة مع أحد منهم فلذلك موضعه، ومناسبته، وما يليق به.

وإذا كانت الحاجة إلى التفصيل فُصِّل في ذلك، وإلا ذكرت أخطاؤه إجمالاً.

وبذلك نحفظ لعلمائنا وعظمائنا أقدارهم بلا وكس، ولا شطط.

كيف إذا استحضرنا أن الشيخ ابن عاشور قد عاش في مرحلة حرجة من مراحل تاريخ أمة الإسلام خصوصاً في بلدان المغرب العربي؟

حيث إن الاستعمار كان يضرب بجرانه فيها، ويجوس خلال ديارها؛ سعياً في تغريبها، وتفريقها، وطمس هويَّتها، والقضاء على ما بقي من معالم دينها، وعلومها، وعفتها؛ فذلك يدعو إلى الاحتفاء بهذا العالم، ويقود إلى التماس المعاذير له.

ولا يعني ذلك أن يساير في خطئه، وإنما المقصود أن يحفظ له قدره، وألا يغمط إحسانه، وفضله.

يقول العلامة الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله في مذكراته ١/ ٢٧٤ : «دخل عليَّ مستشار المعارف، وأنا في مكتبي بالوزارة ظاهر الغضب على محرر جريدتنا المقتبس؛ لنشره في الجريدة تعريضاً ببعض رصفائي الوزراء؛ خدمة لأعراض من يخدمهم من حزبه؛ فسألني المستشار عن غضبي على خلاف عادتي، فذكرت له السبب، فقال: لا أعرف كيف أعلل هذه الأخلاق فيكم تسقطون أبداً رجالَكم من الأعين، ورجالُكُم قليلون مهما بلغ عددهم لا يتجاوز المائة؛ فإذا

أسقطتموهم كلهم فمن يبقى يخدمكم في السراء والضراء، وينفعكم باسمه ومكانته؟!».

وقال الأستاذ محمد كرد علي -أيضاً- : «كان أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري وهو على سرير الموت يقول لمن حوله من أصحابه: اذكروا مَنْ عندكم من الرجال الذين ينفعونكم في الشدائد، ودوِّنوا أسماءهم في جريدة؛ لئلا تنسوهم، ونوِّهوا بهم عند كل سانحة، واحرصوا عليهم حرصَكم على أعزِّ عزيز.

وأظنهم على كثرة ماكدُّوا حافظتهم وذاكرتهم لم يعدوا أكثر من خمسين رجلاً.

وكان يقول لنا -أي الشيخ طاهر- تجاوزوا عن سيئاتهم، وانتفعوا بحسناتهم.

وشيخنا هذا قضى عمره في السعي إلى الإصلاح والتجدد».

٥- أن المؤلف رحمه الله يرى أن القرآن الكريم كتاب هدى وإصلاح، ومنبع علوم وآداب؛ فلا عجب -إذاً- أن تجد في تفسيره تعرُّضاً لكثير من العلوم، والفنون، وشتى المعارف من صناعة، وطب، ونظريات في الفلك وغير ذلك من فروع الثقافة المختلفة التي قد يرى غيره أنها ليس من صميم عمل المفسر.

ولكن إذا علم منهجه زال العجب، وكان ذلك أدعى لقبول ما يورده؛ إذ هو ينطلق من القرآن الكريم إلى كلِّ ما مِنْ شأنِه رفعةُ الأمةِ في علومها، وشؤون حياتها الأولى والأخرى.

٦- أن من أسباب دراسة سيرة الشيخ ابن عاشور وتفسيره التحرير والتنوير - الرغبةَ في مزيد من الصلة بعلماء المغرب -بكافة دوله- حيث إن بُعد المسافة، وقلة التواصل سبب للحرمان من الإفادة والتقارب.

وقد لمست شيئاً من ذلك من خلال كثير من الرسائل التي تصل عبر البريد العادي أو الإلكتروني؛ حيث وجدت الرغبة في مزيد من التواصل، بل والتعجب من أولئك في كوننا في بلادنا نعرف أو نُعنى بعلماء تلك البلاد كالشيخ ابن عاشور، والشيخ محمد الخضر حسين وهما من تونس، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي من الجزائر ـ رحم الله الجميع ـ.

ولا ريب أن العلم رحمٌ بين أهله، ولئن بُسط العذر في الزمن الماضي لقلة وسائل الاتصال ـ فهو الآن غير مبسوط؛ لتيسر الاتصال ـ ولله الحمد ـ.

فهذه بعض التنبيهات التي أحببت الإشارة إليها في بداية هذا الكتاب.